حين تصبح الفضيلة خُلُقاً

فلسفة الأخلاق (3)

كيف تتحوّل الفضيلة من فكرةٍ نعرفها إلى حقيقةٍ نعيشها؟

قد يعرف الإنسان فضيلة الصدق، ويؤمن بقيمته، ويتحدّث عن أثره في بناء الشخصية، لكنّه حين يقف أمام موقفٍ يقتضي الصدق، وتترتّب عليه خسارة مصلحةٍ أو فوات منفعة، قد يتراجع ويختار الكذب. وقد يدرك قيمة الصبر، لكنّه عند الغضب يفقد السيطرة على نفسه، وقد يؤمن بالتواضع، غير أنّ حبّ الظهور والشعور بالتفوّق يدفعانه إلى سلوكٍ يناقض ما يؤمن به.

وهنا يبرز سؤالٌ جوهري في فلسفة الأخلاق: لماذا لا تكفي معرفة الفضيلة لكي يصبح الإنسان فاضلاً ؟

وكيف تنتقل القيمة الأخلاقية من حقيقةٍ يدركها العقل إلى صفةٍ راسخةٍ تسكن النفس وتوجّه السلوك؟

إنّ القضية لا تتعلّق بمجرد اكتساب المعلومات الأخلاقية، بل بكيفية بناء الإنسان من الداخل؛ فالفضيلة ليست فكرةً يعرفها المرء أو مبدأً يتحدّث عنه، بل كمالٌ ينبغي أن يتحقّق في وجوده، ويظهر أثره في إرادته واختياراته وعلاقاته.

أولاً: المعرفة الأخلاقية بداية الطريق

تمثّل المعرفة الأخلاقية الخطوة الأولى في بناء الشخصية الفاضلة؛ إذ لا يستطيع الإنسان أن يختار الخير عن وعيٍ وبصيرة ما لم يعرف حقيقته، ويميّزه عن الشر، ويدرك ما ينطوي عليه من قيمةٍ وكمال. فهو يحتاج إلى أن يعرف أنّ العدل فضيلة، والظلم رذيلة، وأنّ الأمانة كمال، والخيانة نقص.

غير أنّ امتلاك هذه المعرفة لا يعني بالضرورة تحقّق الفضيلة في النفس؛ فالإنسان ليس عقلاً مجرّداً يتحرّك دائماً وفق ما يدركه من حقائق، بل تتفاعل في داخله قوى متعدّدة، من عقلٍ ورغبةٍ وشهوةٍ وغضبٍ وإرادة، وقد تتوافق أحياناً وتتعارض في مواقف أخرى.

فقد يدرك العقل قيمة الصبر، بينما تدفعه قوة الغضب إلى الانتقام، وقد يعرف أنّ العدل هو الموقف الصحيح، لكنّ المصلحة الشخصية تغريه بالانحياز. وهكذا تكشف المعرفة للإنسان ما ينبغي أن يفعله، لكنها لا تضمن وحدها أن يمتلك الاستعداد النفسي والإرادي للقيام به.

وقد ورد عن رسول ا صلى ا عليه وآله:

(لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي وَلا بِالتَّمَنِّي، وَلَكِنَّ الإِيمَانَ مَا خَلَصَ فِي الْقَلْبِ وَصَدَّقَتْهُ الأَعْمَالُ)

فالإيمان ليس مجرّد معرفةٍ أو ادّعاء، بل حقيقةٌ ينبغي أن تظهر آثارها في السلوك. وكذلك الفضيلة، لا تبلغ غايتها حين تصبح موضوعاً للتفكير والحديث، وإنما حين يتحوّل أثرها إلى واقعٍ يصدّقه العمل.

ثانياً: من المعرفة إلى الإرادة

إذا كانت المعرفة الأخلاقية لا تكفي وحدها لإنتاج السلوك الفاضل، فما الذي يجعل الإنسان ينتقل من إدراك الخير إلى اختياره؟

هنا تبرز أهمية الإرادة؛ فهي الحلقة التي تصل بين إدراك القيمة الأخلاقية وتحويلها إلى فعلٍ اختياري. فالمعرفة تكشف للإنسان وجه الخير، والإرادة تتعلّق باختياره والسعي إلى تحقيقه.

وقد يقف الإنسان أمام طريقين: أحدهما ينسجم مع القيمة الأخلاقية التي يؤمن بها، والآخر يحقّق له مصلحةً عاجلة أو لذّةً قريبة. وعندئذٍ لا يكون التحدّي في معرفة الصواب فحسب، بل في امتلاك القدرة على تقديم ما يراه حقّاً على ما تشتهيه نفسه.

فليس الشجاع من يعرف فضيلة الشجاعة فحسب، بل من يثبت حين يحضر الخوف. وليس العفيف من يدرك قبح الانحراف فحسب، بل من يقاوم دواعيه. وليس الصادق من يمدح الصدق، بل من يلتزم به حين تكون مصلحته الشخصية في الاتجاه الآخر.

ومن هنا تتضح أهمية مجاهدة النفس؛ لأنّ الانتقال من المعرفة إلى العمل يحتاج إلى تدريب الإرادة،

ومقاومة الدوافع المنحرفة، وتقديم مقتضى العقل والضمير على الإغراءات العاجلة.

وهذا المعنى يتجلّى في دعاء مكارم الأخلاق للإمام زين العابدين عليه السلام:

(وَانْتَهِ بِنِيَّتِي إِلَى أَحْسَنِ النِّيَاتِ، وَبِعَمَلِي إِلَى أَحْسَنِ الْأَعْمَالِ)

فالإمام عليه السلام لا يسأل مجرّد معرفة العمل الحسن، بل يسأل الله ارتقاء النيّة والعمل إلى مراتب الكمال؛ لتكون الإرادة متوجّهةً إلى الخير، وتتحوّل هذه الوجهة إلى ممارسةٍ حقيقية في الحياة.

ثالثاً: تكرار الفعل وبناء الملكة الأخلاقية

لا تتكوّن الشخصية الأخلاقية عادةً من موقفٍ واحد، ولا تتحقّق الفضيلة بممارسةٍ عابرة؛ فالإنسان يسهم في تشكيل شخصيته من خلال أفعاله المتكرّرة واختياراته المتعاقبة.

فمن يلتزم الصدق في مواقفه، ويقاوم دواعي الكذب، يرسّخ في نفسه اتجاهاً نحو الصدق. ومن يتدرّب على ضبط غضبه، ويختار الحلم عند الاستفزاز، يصبح أكثر قدرةً على التحلّي به. ومن يعتاد الإنصاف، حتى مع من يختلف معهم، تنمو في نفسه ملكة العدل.

وهنا نصل إلى مفهوم الملكة الأخلاقية، وهي هيئةٌ راسخة في النفس تصدر عنها الأفعال بسهولةٍ ويسر، من دون حاجةٍ في كلّ مرة إلى تكلّفٍ ومجاهدةٍ شديدة.

فإذا ترسّخ الصدق في نفس الإنسان، أصبح اتجاهاً مستقراً في شخصيته، وإذا استقرّ الحلم في نفسه، غدا ضبط الغضب أيسر عليه مما كان في مرحلة التدريب الأولى.

ولا يعني ذلك أنّ صاحب الملكة لا يواجه صعوبةً أو ابتلاءً، بل يعني أنّ الفضيلة أصبحت أكثر رسوخاً في نفسه، وأنّ صدورها عنه بات أقرب وأسهل.

ومن هنا يظهر الفرق بين من يصدر عنه فعلٌ حسن في مناسبةٍ عابرة، ومن أصبحت الفضيلة صفةً مستقرةً في شخصيته؛ فالأول قد يفعل الخير تحت تأثير ظرفٍ مؤقّت، أما الثاني فتتجلّى فضيلته في مواقف متعدّدة، حتى يصبح الخير اتجاهاً ثابتاً في سلوكه.

وهذا هو الفرق بين أن يفعل الإنسان الخير، وأن يكون فاضلاً؛ فالأول وصفٌ لفعلٍ قد ينتهي بانتهاء ظرفه، والثاني وصفٌ لشخصيةٍ تشكّلت من خلال الممارسة والاختيار.

رابعاً: تزكية النفس وصناعة الشخصية

إذا كانت الملكة الأخلاقية تتكوّن من خلال تكرار الأفعال، فإنّ بناءها يحتاج إلى مشروعٍ متواصل لتربية النفس وإصلاحها؛ لأنّ النفس قد تستقرّ فيها ميولٌ وعاداتٌ تعيق تحقّق الفضيلة.

فقد يعرف الإنسان عيوبه، لكنه لا يبادر إلى إصلاحها، وقد يدرك أنّ الغضب يفسد علاقاته، لكنه لا يتدرّب على ضبطه، وقد يعلم أنّ الحسد يعكّر صفاء قلبه، لكنه يترك المقارنة بالآخرين تستولي على تفكيره.

ولذلك لا يكفي أن يكتشف الإنسان نقائصه، بل عليه أن يحوّل هذا الاكتشاف إلى عملٍ تربويّ مستمر.

وهذا المعنى يتجلّى في دعاء مكارم الأخلاق، حين يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

(اللَّهُمَّ لَا تَدَعْ خَصْلَةً تُعَابُ مِنِّي إِلَّا أَصْلَحْتَهَا، وَلَا عَائِبَةً أُؤَنَّبُ بِهَا إِلَّا حَسَّنْتَهَا، وَلَا أُكْرُومَةً فِيَّ نَاقِصَةً إِلَّا أَتْمَمْتَهَا)

إنّ هذا الدعاء يرسم منهجاً متكاملاً لبناء الشخصية الأخلاقية؛ فهو يجمع بين إصلاح الصفات المعيبة، وتحسين الصفات التي تحتاج إلى تهذيب، واستكمال الفضائل الناقصة. والأهم أنّه يكشف عن الأخلاق بوصفها مشروعاً مستمراً لاستكمال الإنسان، لا مجرّد مجموعةٍ من الأوامر والنواهي المنفصلة.

خامساً: بين مجاهدة النفس والتوفيق الإلهي

قد يُطرح هنا سؤال: إذا كان بناء الملكة الأخلاقية يحتاج إلى إرادةٍ وتدريبٍ ومجاهدة، فما موقع التوفيق الإلهي في هذه المسيرة؟

إنّ الرؤية الإسلامية لا تفصل بين مسؤولية الإنسان عن تهذيب نفسه وبين افتقاره إلى عون الله تعالى.

فالإنسان مكلّف بالسعي والمجاهدة، لكنه لا يستغني في طريق تكامله عن الهداية والتوفيق والإمداد الإلهي.

إنّه يقاوم عاداته المنحرفة، ويجاهد دوافعه، ويكرّر اختياراته الصالحة، وفي الوقت نفسه يستمدّ من الله القوة والثبات، ويسأله أن يعينه على إصلاح نفسه؛ فلا يغترّ بما يحقّقه من تقدّم، ولا يستسلم إذا واجه ضعفاً أو تعثّراً.

وهذا المعنى نلمسه في دعاء أبي حمزة الثمالي، حيث يقول الإمام زين العابدين عليه السلام:

(مِنْ أَيْنَ لِيَ الْخَيْرُ يَا رَبِّ وَلا يُوجَدُ إِلّا مِنْ عِنْدِكَ، وَمِنْ أَيْنَ لِيَ النَّجَاةُ وَلا تُسْتَطَاعُ إِلّا بِكَ؟)

إنّ هذا الدعاء يربّي الإنسان على إدراك افتقاره إلى الله في جميع مراحل تكاملها؛ فالمجاهدة مسؤوليته، والتوفيق الإلهي عونٌ له في طريق الكمال. فلا يصحّ أن يتّخذ افتقاره إلى الله ذريعةً لترك العمل، كما لا يصحّ أن يتوهّم أنّ سعيه يغنيه عن فضل الله ورحمته.

سادساً: حين تصبح الفضيلة جزءاً من حقيقة الإنسان

إنّ الغاية من التربية الأخلاقية ليست أن يعرف الإنسان الفضائل، ولا أن يمارسها في مواقف متفرّقة فحسب، بل أن يبلغ مرتبةً تصبح فيها الفضيلة اتجاهاً راسخاً في شخصيته، ومبدأً حاضراً في اختياراته، وقوّةً موجّهةً لحياته.

فحين يصبح الصدق جزءاً من شخصية الإنسان، لا يعود مجرّد خيارٍ يدرسه عند كل موقف، بل يصبح الكذب مناقضاً لما استقرّ في نفسه. وحين يترسّخ العدل في أعماقه، لا يقتصر إنصافه على أصدقائه ومحبّيه، بل يمتدّ إلى من يختلف معهم، وحتى إلى من يعارضونه.

وهنا لا تعود الأخلاق مجموعةً من السلوكيات الخارجية، بل تصبح تعبيراً عن حقيقة الإنسان الباطنية، وعن الصورة التي صنعها لنفسه من خلال اختياراته وأعماله.

ومن هذا المنطلق يمكن فهم العلاقة بين الاعتقاد والعمل في قوله تعالى:

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر: 10).

فالاعتقاد الطيّب لا ينبغي أن يبقى فكرةً معزولةً عن واقع الإنسان، بل يتجلّى أثره في العمل الصالح، الذي يكشف عن صدق التوجّه الإيماني وفاعليته في الحياة.

خاتمة: الفضيلة التي تصنع الإنسان

ليس السؤال الحقيقي في الأخلاق: ماذا نعرف عن الخير؟ بل: ماذا صنع هذا الخير بنا؟ فالامتحان الحقيقي للفضيلة يظهر حين تتعارض مع مصالحنا، أو تواجه رغباتنا، أو تستدعي منّا مجاهدة النفس. إنّ الشخصية الأخلاقية تُبنى بالاختيارات الصغيرة المتكرّرة؛ بصدقٍ نلتزمه، وغضبٍ نكظمه، وحقٍّ نؤدّيه، وخطأٍ نعترف به. فكلّ فعلٍ أخلاقي يسهم في صناعة ذواتنا، ويقرّبنا من الإنسان الذي نطمح أن نكونه. وهكذا تبدأ الفضيلة فكرةً في العقل، وقراراً في الإرادة، وممارسةً في الحياة، حتى تصبح خُلُقاً راسخاً في النفس؛ وعندئذٍ لا نكتفي بمعرفة الخير، بل يصبح الخير حقيقةً تتجلّى في وجودنا، وطريقاً نسلكه نحو الكمال الإنساني والقرب من الله تعالى.